

خَيْرٍ ﴿١﴾ فكما الكتاب الحكيم هو عنده ومنه كذلك ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: الكتاب من رب العالمين، وتفصيل الكتاب من رب العالمين، وتصديق الذي بين يديه من رب العالمين.

وقد يعني ﴿الْكِتَابِ﴾ بما عنى، طليق الكتاب النازل على رسل الله ومنه النازل على محمد ﷺ ليلة القدر، فالقرآن المهيم على عليها يحمل تفصيلاً لها، تفصيلاً لمحكم القرآن عن أحكامه، وتفصيلاً لما أبهم من الوحي قبله، وتفصيلاً لحقه عن الباطل المدمج فيه، وتفصيلاً لثابته عن منسوخه، إذا فالقرآن يحمل حصيلاً من ذلك التفصيل التحصيل، ليس بعده تفصيل ولا تحصيل، اللهم إلا ما تشرحه السنة المحمدية ﷺ دونما أي نسخ أو تبديل.

ذلك، وكيف «ما كان أن يفترى» وقد افترى عليه أنه من دون الله وليس من الله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ﴾ ﴿٢﴾؟.

﴿وَمَا كَانَ﴾ هنا مثل ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا تنفي فرية الافتراء، وإنما تنفي أهلية الفرية فيه، فالذين يفترون عليه أنه مفترى هم خارجون عن حقل العقل والفطرة الإنسانية والمعرفة الكتابية، فليس الافتراء هو المنفي، بل المنفي هو جوازه وإمكانيته عقلياً، طالما يقول مجاهيل أنه مفترى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٨﴾:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٣﴾ وهذه هي قضية الحفاظ على

(١) سورة هود، الآية: ١.

(٢) سورة هود، الآية: ١٣.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٢٤.

صالح الوحي والذود عن ساحته، الطالح المدعى، حيث السكوت أمام الفرية إما جهالة أو عجز أم خيانة تعالى الله عنها علواً كبيراً: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴿١﴾ فمن هذا الذي يحجز عن أخذي باليمين وقطعي بالوتين؟ وإجرام الافتراء ليس إلا علي وها أنا بريء منه كما ترونني: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْرِمُونَ﴾ (٢) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ...﴾ (٤)!

فما الفرية على القرآن أنه فرية على الله إلا فرية على الله أنه جاهل أو عاجز أو بخيل أن يذود عن ساحة وحيه، ومفتري عليه، وحتى المشرك بالله ليس ليقوله على الله فأنى تؤفكون؟

وهنا حجة تعجيزية على قولة الفرية ﴿قُلْ فَاتَوُوا سُورَةَ مِثْلِهِ﴾ وكما في البقرة ﴿فَاتَوُوا سُورَةَ مِثْلِهِ﴾ (٥) لا فحسب أنتم العرب العرباء بل ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه مفتري على الله.

ذلك، فتراه - بعد - تفصيلاً للكتاب المقدس - على حد تعبير الحداد الشداد في تقولاته (٦) ويكأن «الكتاب» في عرف القرآن يختص بذلك الكتاب

(١) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٧.

(٢) سورة هود، الآية: ٣٥.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٨.

(٤) سورة السجدة، الآية: ٣.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٦) يقول في كتابه «القرآن والكتاب» (٦٦٢) «مهما يكن من شيء فلا شك أن القرآن تفصيل للكتاب المقدس للقول المكرر بانه تفصيل الكتاب وتصديقه فهل يفصل النبي كتاباً لا يعرفه».

دون القرآن نفسه بمراتبه السابقة، في علم الله، وفي نزوله ليلة القدر بصورة محكمة وما أشبهه؟! .

وهنا النقطة الرئيسية في انحراف الحداد وانهرافه هي اعتباره لفظة: «الكتاب» أنه الكتاب المقدس، وإنما مثله في هذه الدعوى مثل من أنس بكتاب خاص بكل مراس واكتراس، فكلما يسمع لفظة «الكتاب» من أي كتاب، يحسبه كتابه الخاص، مشية عشواء حمقاء عمياء: ﴿أَفَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١).

وهل يستسيغ الحداد تفسير لفظة «الكتاب» في التوراة أنها تعني صحف إبراهيم، لأنه كتاب سبقه؟ .

و«الكتاب» المذكور في القرآن في عشرات من آياته تعني - كأصل - القرآن ولا سيما، فيما يصرح بنزوله على رسول القرآن، ثم وتعني سائر الكتاب بقرائن تعينه وتعنيه.

فقد تعني كل كتاب ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^(٢).

وأخرى كتاباً خاصاً كـ ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ...﴾^(٣).

وثالثة ما فرضه الله في القرآن: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾^(٤).

ورابعة كتاب العدة الرجعية: ﴿وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾^(٥) فهل ﴿الْكِتَابُ﴾ هنا أيضاً - كما يهواه الحداد - هو التوراة، فلا يجوز نكاح المعتدات حتى يبلغ التوراة أجله؟! .

(١) سورة الملك، الآية: ٢٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٥٣.

(٤) سورة النساء، الآية: ٢٤.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣٥.

ولو كان القرآن تفصيلاً ل ﴿الْكِتَابُ﴾ التوراة دون وحي فذ، إذا فدعوى وحيه الفذ فرية على الله ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٧) أم يقولون أفترئه...؟! .

﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ وترى كيف تكون سورة مثله؟ وليس القرآن سورة، بل هو مجموعة سور! .

«سورة» كأصل من سور البلد، وهو الجدار المحيط به الذي يفصله عما سواه، فهي في القرآن مجموعة آيات مفصولة عما سواها من آيات، فصلاً بالبسملة كما في السورة المصطلحة، ومما تعنيها ﴿سُورَةٌ أُنزِلَتْهَا وَفُرِضَتْهَا وَأُنزِلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ (١) .

أم فصلاً في عناية خاصة من مجموعة آيات غير مفصولة بالبسملة كما هنا ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ إذ تعني مجموعة آيات مثل القرآن كله، فالقرآن إذا سورة واحدة، وكما في ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ﴾ (٢) حيث القرآن كله سورة من الوحي كسائر سور الوحي، إذ لكل وحي سور يخصه، ولا سيما لسور القرآن في حقل الفصاحة والبلاغة لفظياً وفي كافة الحقول المعنوية .

أم مجموعة هي قسم من القرآن غير مفصولة بالبسملة كما تعنيها ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعِذْكَ أُولَؤُلَا الطَّلُوفِ مِنْهُمْ﴾ (٣) و﴿يَحْذَرُ الْمُتَفَقُّونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (٤) .

وقد يحتملها سائر السور المذكورة في القرآن كـ ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾

(١) سورة النور، الآية: ١ .

(٢) سورة هود، الآية: ١٣ .

(٣) سورة التوبة، الآية: ٨٦ .

(٤) سورة التوبة، الآية: ٦٤ .

مِّثْلِهِ^(١) ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا^(٢)﴾
﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِّنْ أَحَدٍ^(٣)﴾
﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذَكَرَ فِيهَا
الْفِتْنَال...^(٤)﴾.

إذا فالسورة مصطلحة في القرآن لمجموعات ثلاث: القرآن كله،
المجموعات المفصولة بالبسملات، المجموعات غيرهما وهي الآيات
المرتبطات ببعضها البعض في عناية خاصة.

ولأن أقل سورة مفصولة بالبسملة هي آيات أربع كالكوثر، فهي أقل
المتحدى به في ﴿فَأَنُؤُوا سُورَةَ مِّن مِّثْلِهِ^(٥)﴾ - أو - مثله ثم كل آية مستقلة
المعني هي من المتحدى بها لكونها آية وعلامة لربانية صدورها ومصدرها.

والقرآن يتحدى بسورة، وهي آية مجموعة منه ومنها نفسه كله، أم عشر
مجموعات مفصولات بالبسملات وسواها، أم مجموعة واحدة أقلها آيتان،
بل وآية واحدة لمكان كونها آية، ما تعني معنى مستقلاً كالبسملة وما أشبه.

﴿لَّ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾:

إنهم يصدقون صامدين ما ليس لهم به من سلطان، ثم لا يصدقون ما
يصدقه كل سلطان، ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٤.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٧.

(٤) سورة محمد، الآية: ٢٠.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴿١﴾ .

إنهم ﴿لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ أنه من علم الله، إذ لم يتدبروا فيه حقه حتى يعرفوا معناه ومغزاه، ثم ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ مأخذاً ومرجعاً، فقد كذبوا جهلاً بما يكذبون، وليس للجاهل تكذيب ما يجهله ولا تصديقه، وكان عليهم أن يصدقوه لو كانوا يتدبرون وأحاطوا بعلمه فيعرفوا أنه ليس من عند غير الله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ﴿٢﴾ ولو كان أتاهم تأويله مأخذاً قضية صالح التدبر فيه، لكانوا يصدقون، وحين يأتي تأويله مرجعاً منذ يوم الموت وإلى القيامة الكبرى فلات حين مناص وقد فات يوم خلاص و﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾ ﴿٣﴾ حيث لم يتدبروا فيه ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ...﴾ ﴿٤﴾ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ .

ذلك، فلا يصح ويصلح تصديق شيء أو تكذيبه إلا بعد معرفته والحيطة به قدر ما يسمح للحكم له أو عليه، وهؤلاء الحمائي المجاهيل - الذين لا يسمحون لأنفسهم أن يسمعو لهذا القرآن - يبتدرون بتكذيبه وأنه فرية على الله، كإخوانهم الماديين الذين يحصرون الكون في المادة ثم يحكمون أن ليس الله كائناً لأنه ليس من المادة، أم لأننا ما وجدناه في عالمنا، وهذا تكذيب بما لم يحيطوا بعلمه .

وهكذا كل مصدق أو مكذب لا بد فيه من حيطة علمية قدر ما يصلح للحكم، كما وأن كل علم أو ظن أو شك أو وهم بحاجة إلى برهان يقرره .

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٥٢، ٥٣ .

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢ .

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٣ .

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٤٣ .

ذلك ول ﴿لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ معنيان هما معاً هنا معنيان ثانيهما التّكذيب بما لا يعلم ولمّا يعلم، وقد سئل أبو عبد الله عليه السلام عن الأمور العظام التي تكون مما لم تكن فقال: لم يأن أو أن كشفها بعد وذلك قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ (١).

ولقد «خص الله عباده بآيتين من كتابه أن لا يقولوا حتى يعلموا ولا يردوا ما لم يعلموا...» (٢).

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٤١):

ف ﴿مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ مصلح إذ نحا نحو الحق المبين، يصلح به نفسه ويصلح آخرين، و﴿مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ مفسد إذ يعرض عن مسرح الحق بمصرحه، يفسد نفسه ويفسد آخرين ﴿وَرَبُّكَ﴾ الذي رباك بهذه التريية القمة السامقة ﴿أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ غير المؤمنين به متجاهلين، ولأن ﴿لَا يُؤْمِنُ﴾ ليس إلا تقصيراً تركاً للتدبير فيه أم سواه من تقصير، إذا فعدم الإمعان في معانيه إفساد، مهما اختلف إفساد عن إفساد.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتَ بَرِيءٌ مِّمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٤١):

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ بعد كل هذه البراهين الباهرة، فلا رجاء - إذاً - فيهم لتقبّل هذه الدعوة، فهناك المفاصلة التامة ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي﴾ فلا يضرّكم ما أنا

(١) نور الثقلين ٢: ٣٠٤ في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عنه عليه السلام وفيه عن حمزان قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن الأمور العظام من الرجعة وغيرها فقال: إن الذي تسألوني عنه لم يأت أو أنه قال الله: . . .

(٢) المصدر عن أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: . . . قال عليه السلام: ﴿لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِثْقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩] وقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩].

عليه لو كنت كاذباً ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ لا يضرني إذ أنتم كاذبون، ثم إذا ﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلْتُمْ﴾ ف ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ﴾ كما أنتم ﴿مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

وهذه لمسة ماسة لوجدانهم - إن كان لهم وجدان - باعتزالهم بأعمالهم، وانعزالهم لمصيرهم منفردين، ليواجهوا مصيرهم دونما سند ولا عماد.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٦):

هنا ﴿يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ دون «لك - أو - يستمعونك» تقرر موقف استماعهم أنه ما كان بقصد الانتفاع، بل هو الانتقاد للرسالة القرآنية، مظهرين أنهم استمعوا إليه لقراءته، محيطين بعلمه، فما وجدوه إلا مفترى على ربه ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ الذين لا يسمعون ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما استمعوه وهم لاهون لاعبون، أم لم يعوه إذ لم يستمعوه، ﴿وَإِذَا قُرَأَتْ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبُرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾ (١).

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٤٨):

وهنا ﴿يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ ك ﴿يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ يعني نظراً ظاهراً إبصاراً إليه لا إبصاراً به، فلم ينظروا إليه ليعتبروا بآيات رسالته، بل وليظفروا كأنهم ناظرون إليه نظر الاعتبار، ولكنهم لم يعتبروا إذ لم يجدوا فيه معتبراً فهم عمي في ذلك النظر ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ فقد يبصر الأعمى بإزالة العمى، ولكن الأعمى المصر على العمى ليس ليبصر، فهم

إذا يستمعون إليك ولا يسمعون، وينظرون إليك ولا يبصرون: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(١).

ذلك، والعمي هنا عن آيات الله البينات هم عمي هناك عن رحمت الله والجنات فـ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٢). فهؤلاء العمي هنا عمي يوم الأخرى عن نتائج الإبصار يوم الدنيا وهي الجنات.

وهكذا العمي هنا عن معرفة الله هم عمي هناك عنها ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فلا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يهديهم سبيلاً.

ثم وهم عمي في أبصارهم لفترة عذاباً فوق العذاب، كما هم عمي في بصائرهم عن الرحمت ومعرفة الله عذاباً فوق العذاب: ﴿وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ﴾^(٣) ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾^(٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٤):

فحين هم يستمعون إليك ولا يسمعون، وينظرون إليك ولا يبصرون، تجاهلاً وعناداً ثم لا يهتدون، فمن هو الذي ظلمهم إلا أنفسهم حيث هم ﴿أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فليس الله ظالماً ولا مظلوماً، وإنما هم الناس النسناس الظالمون المظلومون بأنفسهم.

وهذه الآيات الأخيرة - بعد البراهين الوفيرة وعناد المعاندين وتكذيبهم إياه ﷺ - هي تسريات وتسليلات لخاطره الشريف ﷺ عما قد يجده في

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٢.

(٣) سورة طه، الآيتان: ١٢٤، ١٢٥.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

نفسه من تضيق بذلك التكذيب الخفيق والعناد الصفيق، بعد كرور الإعلام ومرور الإعلان، وذلك بما يقرره له ربه من أن إباءهم عن الحق ليس عن تقصير منه في البلاغ، ولا قصور في مادة البلاغ، ولكن هؤلاء هم المقصرون القاصرون كالصم والعمي، ولا يفتح الآذان لسمع الحق والأعين لإبصاره إلا الله لمن تسمع وأبصر، فهم صم عمي حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون، رغم ما استكثروا الأمل واستبطئوا الأجل وكان أمده بعيداً وليس هو إلا ساعة:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (٥٥):

ولقد فصلنا القول حول اللبث في البرزخ أمام القيامة الكبرى في آياتها الست الأخرى^(١) ولا سيما الأخرى (٧٩: ٤٦) فليراجع، وهنا نتحدث حول ميزات هذه الآية بينها.

هنا ثانية تحمل: ﴿سَاعَةً﴾ لبثاً في البرزخ أم وقبله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾^(٢): ﴿سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ كما هنا، أم أية ساعة من ليل أو نهار كما في آية الروم لمكان إطلاق ﴿سَاعَةً﴾، وهي أقل تحديد من هؤلاء للبهيم، وفوقها في آيات أخرى أنه يوم أو بعض يوم، الشاملان لجزئيه ليلاً ونهاراً، أو عشر ليال أو سنين لمكان «عشراً» وهي أكثر تقدير، وحق اللبث هو أنه كان قليلاً دون هذه التحديدات: ﴿فَلَنَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنكُم كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣) أم «يوماً»: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾^(٤) ولكن الحق

(١) وهي ١٧: ٥٢ و ٢٠: ١٠٣ و ٢٣: ١١٢ و ٣٠: ٥٦ و ٤٦: ٣ و ٧٩: ٤٦.

(٢) سورة الروم، الآية: ٥٥.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١١٤.

(٤) سورة طه، الآية: ١٠٤.